الدين وعلم النفس الحديث

لحضرة الاستاذ الفاضل صاحب الامضاء

— ٢ —

أهمية الغريزة الجنسية وعلاقتها بالتدين

أكثر الذين ينتقدون نظريات « فرويد » فى الغريزة الجنسية يقولون إن تلك النظريات مبالغ فيها، فهم يسلمون بصحتها ولكنهم يشكون فى مقدار أهميتها والأمر الذى تجب ملاحظته هنا هو أن هؤلاء الناقدين دائماً يهاجمون نقطاً معينة من تلك النظريات مثل علاقة التدين بالغريزة الجنسية ووجود تلك الغريزة فى الاطفال وبين الأقارب وذلك بطريقة تدل على أن للعاطفة فى تفكيرهم حظاً أكبر من حظ المنطق لأن الذى يعتقد أن الدين مقدس والغريزة الجنسية غير مقدسة لا يستطيع التسليم بوجود أية علاقة بينهما لأن ذلك ينقص من قداسة الدين، والذى يريد أن يرى فى الأطفال ملائكة أطهاراً لا يحب أن يفسد «ملائكيتهم» بالاعتراف بوجود بذور الشهوات الجنسية فيهم وكذلك الحال فى بقية المسائل التى يهاجمونها. ان مانسميه «سعادة ...» مثلا أعلى، حياة وفيرة، الخ هى تعبيرات فلسفية لاهوتية غير واضحة لما يدعى فى علم النفس « مبدأ اللذة » the Pleasure-principle ومعناه أن اللذة هي المحرك الأعظم فى كل أنواع نشاطنا النفسى كل قوى حياتنا النفسية متجهة نحو جلب اللذة ودرء الألم الذى هو لذة سلبية . فطالب المثل الأعلى انما يطلبه لأنه يجد لذة فى تشوقه اليه وسعيه نحوه ولذلك نراه اذا وصل إلى ما يدعوه مثلا أعلى يخلق لنفسه مثلا أعلى آخر ليسعى و يتشوق إليه من جديد ، وهكذا يفوز باللذة التى هى فى الحقيقة غرضه الوحيد وكذلك يفعل طالب السعادة وطالب الحياة الوفيرة

غير أن الحصول على اللذة — مادية كانت أم عقلية — غير متيسر للجميع لأن اللذات العقلية تستلزم وقتا واستعدادا و اللذات المادية غالية الثمن . عدد الذين تسمح لهم أوقاتهم ومؤهلاتهم بالتمتع باللذات العقلية قليل وعدد الذين يمكنهم التنعم بخيرات

الحياة الدنيا أقل : فهذان النوعان من اللذة مستحيلان اقتصاديا ولكن الكل يطلب اللذة فلا بد إذا من إيجاد لذة تكون فى متناول الجميع — لذة يمكن أن يحصل عليها أكبر عدد فى أقصر وقت بأرخص ثمن، ولاشك أن اللذات الجنسية تتوفر فيها كل هذه الشروط لأنها أرخص اللذات وأقربها من متناول الجميع حتى ان الذين يجدون صعوبة فى الحصول عليها بالطريقة العادية بين الجنسين يمكنهم الحصول عليها فى أنفسهم، وذلك هو منشأ العادات السرية وهو ايضا سبب انتشارها خصوصا بين الشبان والمراهقين الذين تمنعهم آليته والتقاليد من الحصول على تلك اللذات بالطرق العادية وبين الفقراء الذين لا يقدرون على دفع ثمنها . اما الذين تسمح حالتهم المالية لهم بالحصول على العلاقات الجنسية العادية وتكوين حياة اجتماعية فى المراقص والمراسح فهم ليسوا فى حاجة إلى تلك اللذات الرخيصة . ومثلهم الذين يفضلون اللذات العقلية ولديهم من الوقت ما يمكنهم من التفرغ لها

ومما يدل على أهمية الغريزة الجنسية كلذة هو ان الامور المتعلقة بها هى التى تختارها العامة فى اوقات فراغها . ولذلك نرى القصص الغرامية اكثر الكتب انتشاراً والروايات التى تشاهد فى المراسح ودور السنما تكاد تكون كلها ذات موضوع غرامى والقسم الخارجى من المقاهى — سواء أكانت فى القاهرة ام فى باريس — مزدحم بهؤلاء الذين يقضون الساعات الطوال هناك لا لشىء سوى التفرج على سيقان السيدات وأردافهن . بل اننا اذا حللنا أكثر تلك العلاقات التى ندعوها اجتماعية ، نجد ان العامل الأصلى فى تلك العلاقات هو مبدأ اللذة وتلك اللذة غالبا جنسية . والآن يمكننا ان نفهم نوع العلاقة بين التدين والغريزة الجنسية . من المعلوم ان اكثر المتدينين عددا واشدهم تمسكا بالدين هم الفقراء وغير المتعلمين ، ومن المعلوم ايضا ان « الالحاد » اكثر ما يوجد بين العلماء والمفكرين ، وان الفتور وضعف الايمان لا يوجدان غالبا الا عند الاغنياء الذين تشغلهم اللذات عن التفرغ للعبادات وان الفقير وغير المتعلم اذا تمرد وجدف او ضعف ايمانه فانه دائما يرجع الى ايمانه تائبا مستغفرا — خائفا . فلماذا هذا الفرق ؟ وما هو سببه ؟

ان قدرة الانسان على ممارسة اللذات الجنسية لا تكفى لارضاء مطالب تلك اللذات والملحة المتجددة لان تلك القدرة محدودة . ولكن عدم القدرة لا يزيل تلك الحاجة ذلك الالحاح . . فقد ينهك الانسان جسده بالانهماك فى اللذات الجنسية ومع ذلك

لا يستطيع ان يضعف من ميله اليها . فاذا يصنع الفقير الذى ذهب الفقر بنصف حيويته واللذات الجنسية الرخيصة بالنصف الاخر ؟ كيف يرضى مطالب مبدأ اللذة التى لا تضعف ولا تموت ؟ الطريق الوحيد الذى يمكن اتباعه فى هذه الحالة محاولة الحصول على لذة لا تستدعى مجهودا بدنياً كبيرا بأن يستبدل اللذة الحقيقة بلذة خيالية والجسدى بالروحى والعاجلة بالآجلة والمثل الادنى بالمثل الاعلى . والدين يقدم ما يسد كل تلك الحاجات . فالذين فقدوا القدرة الكافية للتمتع باللذات الرخيصة يقدم لذات خيالية ، سامية ، مثل حصر التمتع فى هذه الحياة فى اللذات المباحة وفى الآخرة جنة النعيم والحور العين او محبة العذراء الطاهرة والمسيح المحبوب والكنيسة التى هى عروس المسيح . واكثر المتدينين يكتفون بهذا الجانب من الحياة الدينية — جانب الاستبدال الذى تفرضه الضرورة

وللذين يميلون الى التنوع فى اللذة يقدم الدين نوعا من اللذة العقلية خاصة به ، هى التفكير اللاهوتى . وهو نوع من التفكير السطحى اللذيذ الذى توجد فيه لذات التفكير ولا توجد فيه صعوباته . هو تفكير ظاهره فلسفة وباطنه خيال وثمرته اللذة . وفيه عناصر ترضى كبرياء الانسان وتجعل المتدين الجاهل ينظر الى العالم غير المتدين نظرة الازدراء لأنه ملحد . وعناصر تبرر انتقامه من الذين هم أرقى منه عقليا بصب اللعنة عليهم لان الملحد يستحق اللعنة والغضب . وبالجملة حيث أن الخيال هو اساس التفكير اللاهوتى فيمكن الانسان أن يجرى فيه كل ما يريد لانه فى امكانه ان يخلق كل ما يشاء . اذا كان عدم وجود الله مثلا يجعل حل بعض المسائل صعبا أو بناء بعض القصور الخيالية متعذراً والانسان يصنع إلهه من الاحجار أو الاشجار أو النور أو النار . بل هو يمكنه أن يصنع اكثر من ذلك — يمكنه أن يصنع إلها من لا شىء . يوجد فى كل مكان ولا يحويه مكان . . . موجود وان لم يره أحد متكلم وان لم يسمعه انسان . له اسماء كثيرة ضخمة غامضة أبسطها « واجب الوجود » .

وهذا النوع من التفكير يملأ فراغا كبيراً فى حياة الطبقات الفقيرة والمتوسطة ويعلمهم الرضى والقناعة ويساعدهم على الخضوع والطاعة ولذلك ترى التاريخ مملوءا باخبار الامراء والاغنياء الذين هم أنفسهم غير متدينين يشجعون رجال الدين ويمدونهم

بالاموال لأعمال الوعظ ونشر الدعوة الدينية وذلك لكي يخلو لهم جو اللذات الحقيقية وليكونوا في مأمن من مضايقات الطبقات الأخرى وتذمراتها وثوراتها

***

فان قيل إن التفكير اللاهوتي يوجد ايضا عند كثيرين من العلماء والمفكرين الذين هم ليسوا في حاجة الى ذلك النوع من اللذة العقلية. اقول نعم ولكن هؤلاء من ذوي الشخصيات المنقسمة. وانقسام الشخصية Dissociation هو ان يكون للانسان شخصيتان مختلفتان ومنفصلتان عن بعضهما انفصالا تاما. احداهما خاضعة للعقل والمنطق، والاخرى تحت سلطان العاطفة والخيال. والشخصيتان لا تلتقيان. بالاولى يفكر كعالم وهو يعرف، أن الارض تكونت في ملايين من السنين. وبالثانية يفكر كمتدين و «يؤمن» أن الارض خلقت في ستة ايام. كعالم يقول ان ٣ = ٣ وان غير ذلك مستحيل، وكمتدين يقول ان ٣ = ١ وان ذلك سر الثالوث الاقدس

للكلام بقية

طاهر خيري

ظهر الجزء الاول من

اصل الانواع

وَنُشُونَها بِالانْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ وَحِفْظِ الصُّفُوفِ الغَالِبَةِ فِي التَّنَازُعِ عَلَى البَقَاءِ

فاطلبه من دار العصور والمكاتب الشهيرة